الفصل الخامس

شمالي أفريقيا وغربيها إبان العصر الإسلامي

إن أعظم ما حققه الإسلام جاء بعد تفكك الإمبراطورية العربية. وفي الواقع تمكن العرب من كشف مقدرة الأفريقيين للاستجابة والتطور لتحقيق أهدافهم. فقد كان العصر منذ عام ٨٠٠ إلى عام ١٣٠٠ عندما كانت الحضارة الإسلامية لا تنافسها أي حضارة في أي بقعة على الأرض ولا تجد نظيرًا لآراء المسلمين وأفكارهم وفنهم وعلومهم، على الرغم من ذلك لم يخل من تطاول بعض دويلات أفريقية، فقد أدى البربر دورًا رئيسًا في تاريخ شمالي أفريقيا وغربيها.

وللوصول إلى أسباب هذا التطور يجب الرجوع إلى الانشقاق والتصدع الذي أصاب الإسلام، فمن المسلم به أن العباسيين وصلوا إلى الحكم بمعاونة الشيعة ولكن ما إن نصبوا أنفسهم خلفاء للمسلمين جميعًا حتى حطموا ذلك السلم الذي ارتقوه إلى الحكم حتى لا يرتقيه منافسوهم. ولكن الشيعة التي أفلتت من الاضطهاد ضاعفت من مجهوداتها ونشاطها.

وفي نهاية القرن التاسع، أرسل أحد دعاتها من اليمن إلى المغرب وهناك نجح مع الفاطميين الذين كانوا دائمًا ناقمين على أي استقرار. وفي سنة ٩١٠ نصب نفسه خليفة، وبذلك أفصح عن نواياه التي تخطت مجرد الزعامة وسمى عائلته بالفاطميين وانتقلت عاصمتهم من قيروان صوب (المهدية)

الحصن الساحلي وكان الفاطميون مقتنعين بأن غزو مصر في ذلك الوقت فكرة قيمة ويجب أن يكوّنوا جيشًا قويًّا وأسطولًا بحريًّا.

وفي سنة ٩٦٩، بدأ غزو مصر ثم اعترفت سوريا والحجاز بالخليفة الفاطمي المعز الذي وصل إلى القاهرة في ٩٧٣ واتخذها عاصمة لدولته. ولم يحضر المعز معه حاشيته وكنوزه فحسب، بل أحضر معه أيضًا رفات أجداده وأصبح البربر حكامًا للعرب في سوريا وأجزاء من الجزيرة العربية. واستمر حكم الفاطميين حتى سنة ١١٧١. وكما سيأتي، فقد الفاطميون بلاد المغرب كما انسلخت سوريا من الدولة التي كانت مهددة بغزو جيوش الروم والتي كانت تحاول يائسة استعادة إمبراطوريتها. ثم هاجم الأتراك السلجوقيون سوريا وزحف الأتراك شرقًا حتى استولوا على بغداد في سنة ١٠٥٥ ودخلوا دمشق في سنة ١٠٧٦. وفي عام ١٠٩٦ ظهرت الجيوش الصليبية في الميدان وكانت الجيوش التركية تهدد مصر. لكن ظهر صلاح الدين الأيوبي سنة ١١٧١ وأنشأ دولة الأيوبيين.

ومنذ ذلك التاريخ، أدت مصر خدمات جليلة للقارة الأفريقية؛ إذ كانت بمثابة الدرع الواقي ضد الغارات الخارجية واستمر حكم الأيوبيين حتى سنة ١٢٥٠ وكان الجيش يتكون من المماليك الذين كانوا يستجلبون من أسواق وسط آسيا.

وخلال حكم بيبرس من عام ١٢٦٠ إلى عام ١٢٧٧ وقلاوون من عام ١٢٧٩ إلى عام ١٢٩٠ لم يستطع المغول دخول أفريقيا كما تم طرد الصليبيين نهائيًّا. ومنذ نهاية القرن الرابع عشر بدأ ينخر السوس في قوة

المماليك، وإن كان مظهر النظام يبدو عظيمًا.

وكثرت المشاحنات والمنازعات بين المماليك حول السلطة أول الأمر حتى أودت بنظم الري والزراعة كما انهارت التجارة واقتصاديات البلاد.

وكان المعز قد ترك خلفه في المغرب– عندما زحف إلى مصر– (سنهاجا) الذي أعلن استقلاله وما كاد يفعل ذلك حتى فقد سيطرته على البلاد.

أرسل الفاطميون عددًا من قبائل البدو ممن كانوا مثار تعب لهم في مصر العليا، وعلى رأسهم بنو هلال، فوصلوا بلاد المغرب سنة ١٠٦١ ولم يكن بنو هلال على قدر كاف من الثقافة الإسلامية وقد وصف ابن خلدون المؤرخ العربي العظيم، وهو تونسي المولد، الهلاليين بأنهم أسراب من جراد لا تُبقي ولا تذر.

إن اتصال العرب والإسلام من ناحية مع شعب الصحراء الكبرى والسودان من ناحية أخرى لا يحتاج إلى دلائل كثيرة ولكن خلال حكم الأمويين أغارت جماعات من العرب على فزان وعلى جنوبي مراكش. كما اتصل العرب في القرن التاسع بغانا وكانم وبعد قرنين دخل ملوك كانم في الإسلام وذلك بسبب اتصالهم بمصر. ولكن قبل غارات الهلاليين لم يكن عدد العرب في المغرب كافيًا بحيث يمكنهم السيطرة على الصحراء الكبرى إذ كانوا يميلون إلى ترك الصحراء ومسؤولية المواصلات في الصحراء إلى الطوارق كما فعل الرومان، ومن قبلهم دولة قرطاجة.

وخلال القرن الحادي عشر، كانت حركة الدخول في الإسلام نشطة بين قبائل الطوارق التي كانت تتحكم في طريق القوافل بين مراكش وغانا

وكان لهذا تأثير عظيم على المغرب والسودان الغربي.

وتبدأ القصة التقليدية التي يرويها ابن خلدون وغيره من المؤرخين المسلمين بتأدية حاكم الصحراء الكبرى (سانهاجا) فريضة الحج وعند عودته أحضر معه بعض الفقهاء وعلى رأسهم ابن يوسف ليعلم شعبه الكتاب والحكمة. وفي أول الأمر لم يقبل الطوارق تعليم ابن يوسف بل أكره على الذهاب إلى الرباط حيث أخذ في تعليم بعض الصفوة هناك. وكان ذلك هو بدء قيام المرابطين– نسبة إلى الرباط– وما إن أخذ مذهب المرابطين ينتشر بين قبائل سانهاجا حتى هبوا من الصحراء لغزو الشمال والجنوب: جناح بقيادة أبي بكر ليتجه صوب الجنوب نحو غانا، أما الجناح الآخر بقيادة ابن طشفين ليتجه صوب مراكش في الشمال، وما إن جاء عام ١٠٦٩ حتى استولوا على المنطقة وتقدموا بعد ذلك إلى الشرق حتى حدود دولة سانهاجا في شرقي المغرب وفي سنة ١٠٨٦ استجاب ابن طشفين إلى نجدة مسلمي أسبانيا وفي عام ١١٠٣ كان جميع مسلمي أسبانيا تحت إمرة المرابطين.

لقد حقق المرابطون في المغرب أمورًا عظيمة وأظهروا للشعب أنهم سيخلصوهم من الحكام الفاسدين وبذلك جمعوا الزكاة وأقاموا إمبراطورية عظيمة في النصف الغربي من المغرب ونعموا في الرفاهية، وبذلك فقدوا الإيمان والحماس الحربي وارتباطهم بأيام الصحراء، ومن ثم بدوا للمراكشيين كأنهم غرباء يحرمون الشعب حريته وينعمون بأموال الشعب، وقد نادى ابن تومارة أحد شيوخ جنوبي مراكش المرابطين الذين كانوا في قرارة أنفسهم من المنكرين وحدة الله وسرعان ما وجد آذانًا صاغية لدى قبائل البربر المنتشرة في جبال أطلس.

وكانوا فيما مضى أعداء سانهاجا ولكنهم في حاجة إلى وحدة الصف. وفي سنة ١١٢٥ أعلن ابن تومارة أنه المهدي وفشل المرابطون في أن يتخذوا ضده أي خطوة حازمة واكتسبت دعوته التأييد وزاد عدد الموحدين بين قبائل الجبال المعادين لسانهاجا. وفي عام ١١٤٧ نصب خليفته عبد المؤمن سيدًا على مراكش وخليفة لها.

وعلى الرغم من تولي الموحدين أمر أسبانيا بعد المرابطين، فإن عبد المؤمن كان يرى أن الخطر الأعظم على حكمه لا يأتيه من المسيحيين في الشمال بل من الشرق. وصل عبد المؤمن في غزواته إلى تونس سنة ١١٥٩ وبذلك دان المغرب كله لحكم البربر كما أصبح المغرب قوة إسلامية رئيسة بين دول البحر المتوسط، وخلف الموحدون بمعاونة الطبقة المتعلمة في المغرب مدنًا جميلة، مثل: مراكش وفزان وتلمسان والرباط؛ مما اضطرهم إلى فرض الضرائب للإنفاق من حصيلتها على هذا التعمير والإنشاء. وكان عبد المؤمن من القوة بحيث استطاع أن يجعل الخلافة وراثية في سلالته وأثبت خلفاء الموحدين حتى ١٢١٣ كفاية ومقدرة على الحكم.

ولما كان الموحدون يفرقون بين تابعيهم من المعمورة ومن البربر وظهر أثر تلك التفرقة والتمييز بين الأتباع عندما تهددت إمبراطوريتهم بغزو المسيحيين في أسبانيا ومن البدو في وسط المغرب. فأراد الخليفة مُحَمَّد الناصر عام ١١٩٩– ١٢١٣ أن يعالج الخطرين فعين نائبًا من الحافصيين– إحدى العائلات البارزة في الموحدين– ليتولى الولاية على الجزء الشرقي حتى تونس. ولسوء حظ الموحدين أن الحافصيين حققوا نجاحًا باهرًا، وبعد هزيمة البدو أصبحت تونس تحت حكم الحافصيين أكثر استقرارًا بالمقارنة

مع الجزء الغربي وأكثر رخاء. وفي عام ١٢٣٠ عقدت دولة الحافصيين اتفاقيات تجارية أوروبية كما نجحوا في أن يحولوا أكثر التجارة العابرة للصحراء لمصلحتهم.

أما في الغرب، فقد عانى الموحدون من هزيمتهم أمام المسيحيين في أسبانيا سنة ١٢١٢ التي كانت بداية النهاية لحكمهم ليس في أسبانيا فحسب، بل في مراكش وتفرق شملهم وانقسموا إلى قبائل.

انتهت دولة البربر وتفككت وحدة المغرب التي كانت مفروضة عليهم. فقد انقسمت إلى ثلاثة أقسام بقيت حتى يومنا هذا. فاستمر حكم الحافصيين مزدهرًا حتى سنة ١٥٧٤ في تونس وينعمون بالرفاهية التي أغدقتها عليهم الزراعة والتجارة مع جنوبي أوروبا والسودان.

وفي الغرب قامت مراكش تحت حكم المارينية ثم تلاهم الوطاسيين من عام ١٤٦٥ إلى عام ١٥٥٤ وقامت بينهم الدولة الثالثة، وهي الجزائر.

أما السودان الغربي، فقد بدأ المرابطون هناك في الزحف على غانا عام ١٠٦٢ واستولوا على العاصمة بعد مقاومة عنيفة استمرت حتى عام ١٠٧٦، ولكن سرعان ما تنازعوا على الغنائم وبذلك تمكنت غانا خلال أعوام قليلة أن تستعيد استقلالها وكل قوتها السابقة.

وقد اضطربت التجارة عبر الصحراء الكبرى بفعل انقسام الموحدين؛ الأمر الذي أثر تأثيرًا سيئًا على اقتصاد البلاد. كما لم تسلم زراعة أراضي الساحل من القبائل الرحل الذين كانوا يجوبون الصحراء ومعهم أغنامهم وماعزهم.

وإزاء تلك الكوارث الاقتصادية، بدأ تفكك دولة غانا إلى قبائلها التي كانت تتكون منها الدولة فيما مضى، ولكن على الرغم من ذلك. لم تمت فكرة الدولة في السودان الغربي، بل اندفعوا صوب الجنوب نحو أرض أكثر صلاحية للزراعة بعيدًا عن الصحراء وعن هجمات رعاتها المخربة. وتكونت بذلك دولة مالي تحت حكم سانديانا الذي حكم من عام ١٢٣٠ إلى عام ١٢٥٥.

وكما يبدو، فإن سانديانا كان وثنيًّا ولكنه وخلفاؤه قدروا المزايا السياسية والاقتصادية التي تعود عليهم وعلى دولتهم إذا ما اعتنقوا الإسلام. ومن المعلوم أن ملوكهم كانوا يستعينون بمستشارين مسلمين وقد ترتب على غزو الموحدين الترغيب في الإسلام بين السودانيين أنفسهم ويبدو أن سانديانا آمن بالإسلام. وخلال تاريخ مالي العظيم حتى نهاية القرن الرابع عشر، كان خلفاء سانديانا ويلقبون (بمانسا) أي الإمبراطور من المسلمين بدون شك ومنذ ذلك التاريخ كانت أغلب دولة السودان الشرقي يحكمها مسلمون.

ولعل أهم ميزة حققها الإسلام لشعوب شرقي أفريقيا؛ أنه ضمن لهم كيانًا مضمونًا مع الحكومات وتجار شمالي أفريقيا الذين كانت نواياهم الحسنة أمرًا مهمًّا لرفاهية ورخاء السودان، إذ كان تجار السودان منذ القرن الثالث عشر من المسلمين. وبذلك نشروا الدعوة الإسلامية في السودان الغربي.

وقد كتب ابن بطوطة بعد أن تجول داخل مالي منذ عام ١٣٥٢ إلى عام ١٣٥٣ أن شعب مالي قلما يحيد عن العدل ويفزع من الظلم أكثر

من الشعوب الأخرى ولا تأخذ سلطانهم أي شفقة أو رحمة بمن تثبت إدانته في اقتراف ظلم والأمن مستتب غاية الاستتباب ويأمن المسافرون أو المقيمون فيها حيث لا يخشى أحد منهم اللصوص أو قُطَّاع الطريق.

وأخذ يسوق البراهين على ازدهار التجارة والزراعة. وقبل رحلة ابن بطوطة بسنوات، قام الإمبراطور موسى الذي يعتبر أعظم أباطرة مالي وأحسنهم بأداء فريضة الحج كبقية أسلافه ومر في طريقه بالقاهرة وقد ترك أحسن الأثر في القاهرة. كما جلب كمية من الذهب أدت إلى خفض سعره في القاهرة وقد رفع الإمبراطور موسى بهذه الزيارة من مركز مالي إلى مصاف الدول الكبرى في ذلك الوقت.

وهكذا أصبح السودان الغربي جزءًا من العالم العربي عُرف بكثرة مساجده ومدارسه التي كان يؤمها الشيوخ وطلاب العلم من الدول الأخرى وقدموا مساكنهم للطلبة والمسافرين. كما ارتبط السودان الغربي بالتجارة مع شمالي أفريقيا.